العالم الجديد

للأستاذ زكريا إبراهيم

عصرنا الحاضر عصر مضطرب ثائر ، لا نكاد نجد له مثيلا في التاريخ الغابر . فنحن نواجه اليوم حالة لم تعرفها الأجيال الماضية لأننا نحيا في عالم جديد يعج بالمشاكل المعقدة والمسائل الصعبة . وهذه الحالة التي تفرضها علينا مقتضيات هذا العصر ، هي وليدة التطور الذي لحق الحضارة الإنسانية الحديثة . فليس من شك في أن علينا أن نكيف أنفسنا مع العالم المتغير الذي نحيا فيه ؛ على ضوء المعارف التي نحصلها من الحركة العلمية المستمرة . والمعرفة هي — وحدها — التي استطاعت أن تغير معالم الكون ، فلابد لنا إذن أن نعتمد على المعرفة ، حتى نستطيع أن نحقق التوافق بيننا وبين البيئة الجديدة التي نعيش فيها .

غير أن الخوف قد يقف حائلا دون مواجهة الموقف الحاضر في صراحة وقوة ؛ فإننا نخشى أن تقتادنا النظرة الجديدة للكون إلى الخروج عن معتقداتنا المألوفة وأفكارنا السابقة ، ولكن هذا الخوف نفسه دليل قوي على أننا نشك في صحة تلك الأفكار والمعتقدات ، ومن ثم فإننا نخشى أن نفحصها على ضوء الحقائق الجديدة والمعارف الحديثة . وإذن فالخوف ليس إلا مظهراً للشك والجهالة ، وبالتالي فإن من واجبنا أن نطرحه جانباً إذا أردنا أن نكون مخلصين لروح العصر .

لقد أصبحت الشجاعة أول ضرورة من ضرورات هذا العصر فإن قيام العالم الجديد رهن بما أوتينا من شجاعة وقوة وإقدام . وليس من واجب الفكر أن يرتد فزعاً أمام تلك التيارات الرجعية التي قد تثور في وجهه ، بل إن عليه أن يجهز بكلتا يديه على تلك الحيف الحية ، لكي يقذف بها في زوايا التاريخ !

وإنها لمسئولية خطيرة تلك التي تقع على عاتقنا اليوم ؛ فقد مضى ذلك العصر الذي كنا فيه نعتمد على القوى المجهولة والمصادر الخفية في استقاء معارفنا ومعلوماتنا . وليس علينا الآن إلا أن نعتمد على نفوسنا ونفكر لذواتنا ، في كل المسائل التي تواجهنا ؛ وما أكثر هذه المسائل !

إن أسلافنا كانوا يتوهمون أنهم قد عرفوا كل شيء منذ الولادة حتى ما بعد الموت ؛ أما نحن فقد أصبحنا لا ندري ماذا يحدث بعد الغد ! ومما لا ريب فيه أن للحرية الفكرية تكاليفها ؛ فإنها ترفع تلك اليد التي تقود زمامنا ، لكي تسلمنا إلى أنفسنا ، وهنا يكون علينا أن نبحث كل شيء من جديد ؛ ولكن لا كما يبحث الأعمى الذي يمسك بيده آخر ، بل كما يبحث المبصر الذي يتحقق من كل شيء بنفسه .

ولن يكون في وسعنا أن نحل المسائل كما كان يحلها أسلافنا لأننا لن نطمئن إلى تلك الحلول السريعة التي تثب إلى المطلوب دون بحث واستقصاء . بل إن حلاً ما ، مهما كان من صحته ودقته لن يكون حلا نهائيا حاسماً ، ما دامت معارفنا في تزايد مستمر وتقدم دائم ...

أما النزعة اليقينية التوكيدية ، فإنها لن تجد موضعاً في العالم الجديد ... وكيف يمكن أن توجد مثل هذه النزعة في عالم يرى أناسه الحقائق كما هي ، لا كما يقول بها مذهب معين أو رأي خاص ؟

إن العالم الجديد هو عالم الفكر الحر ، والبحث النزيه ، والخير العام . فلن يشهد فجر الغد حجراً على التفكير ، أو ميلا إلى الطعن والتشهير ، أو سعياً إلى الخراب والتدمير — وما دامت تلك الأصنام التي طالما تنابذ الناس من أجلها ، لابد أن تتداعى يوماً ، كما انهدكت عروش أصحابها ، فلا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي يشرق فيه فجر الحضارة الإنسانية الصحيحة

ومن واجبنا الآن أن نعمل على هدم تلك الأصنام التي تعوق مجيء ذلك اليوم . حقاً إن الإنسانية طالما حرقت البخور لها ، وعفرت الجباه أمامها ، ولكنها قد أخذت تدرك اليوم أن من واجبها أن تهوي بمعولها على تلك الأصنام جميعاً ، فتأتي عليها عن آخرها — وما هذه الأصنام إلا الجهل ، والتعصب الذميم ، والنعرات القومية الفاسدة !

ولن يقوم في العالم سلام ، إلا إذا كان ذلك في أرجاء الأرض قاطبة ، ولن يكون ثمة رخاء ، إن لم يكن ذلك رخاء عاماً ، ولن يشرق فجر العالم الجديد ، إذا لم يعم نوره الشرق والغرب والشمال والجنوب !

فليعلم إذن أولئك الذين يرجون قيام عالم جديد تسود فيه الحرية والطمأنينة والرخاء ، أن عليهم أولا أن يقوضوا تلك الأصنام القديمة ، حتى يقيموا على أنقاضها بنيان العالم الجديد المنشود !

زكريا إبراهيم